واجهـــة الفصل الثـــاني

توطئـــة :

الصورة الفنية عموماً و القرآنية على وجه الخصوص ، من أجلّ ميادين البلاغة و أخصبها ... ذلك أنّها ترتبط بكتاب الله العزيز ، و بألطف دُرره المخبوءة بين ثناياه ،لا يصل إليها إلاّ من آتاه الله فضلا ...

كما أنّ الحادثة المرتبطة بالأسباب والنتائج يهفو إليها السامع ، فإذا تخللتها مواطن العبرة في أخبار الماضين كان حب الاستطلاع لمعرفتها من أقوى العوامل على رسوخ عبرتها في النفس ، والموعظة الخطابية تسرد سردًا لا يجمع العقل أطرافها ولا يعي جميع ما يلقي فيها ، ولكنها حين تأخذ صورة من واقع الحياة في أحداثها تتضح أهدافها ، ويرتاح المرء لسماعها ، ويصغي إليها بشوق ولهفة ، ويتأثر بما فيها من عبر وعظات ، و القصص الصادق يمثل هذا الدور في الأسلوب العربي أقوى تمثيل ، ويصوره في أبلغ صوره : قصص القرآن الكريم ...

و إذا ما التقى قصص القرآن و ما يحمله من أسرار ، بالصورة القرآنية البيانية و ما لها من آليات لاستجلاء تلك الأسرار ، فذلك مبحثٌ ماتعٌ ، ودربٌ بلاغيٌ أصيل ، و روضة من رياض الجنة على الأرض ...

المبحث الأول : الصورة الفنيــة في القـرآن الكـريم

تتميز الصورة الفنية في القرآن الكريم، بأسلوبها، و موضوعها ، ومواد تشكيلها، و وظائفها ، فهي صورة تحمل أهدافاً دينية و لكن ذلك لم يمنع من أن تتجلى في بناء و تقديم فني ، " الصورة القرآنية متداخلة تعتمد على العلاقات والروابط فيما بينها لتشكيل بناء تصويري واحد، و إن تعددت فيه الأنظمة والعلاقات التي تربط بين لبناته ، فهذا مما يزيد في صفاته الجمالية أو الفنية " [1] ، و قد استنفد القرآن الكريم " الطاقات التصويرية للغة العربية في التعبير فجاءت صوره حية متحركة شاخصة ، كما جاءت متنوّعة مشحونة بالمشاعر والانفعالات " [2]

و الصورة الفنية في القرآن الكريم تحمل خصائص متنوعة ، تنساب ضمن نظام دقيق و تتناسق أجزاؤها فيما بينها مكونة بذلك مشاهد حيّة ، تَمثلُ أمام ناظري القارئ و المتأمّل لكتاب الله ، مصوّرةً أقوى الأحاسيس ، و أبهى مناظر الترغيب و البشائر ، و أفزع مشاهد التخويف .

1 الراغب أحمد عبد السلام ، وظيفة الصورة الفنية في القرآن ، فصلت للدراسات والترجمة والنشر ، ط 1 ، حلب ، 2001 ، ص 379 .

2 نفسه : ص 39 .

1 – الصورة القرآنية و مقوماتها :

كان للقرآن الكريم عظيم الفضل في تطور اللغة العربية ، كما ساعدت هي " في بناء الصورة الفنية في القرآن الكريم، لأنها لغة تصويرية، في طبيعتها، وهي من أكثر اللغات انسجاما مع تصوير الحالات النفسية والذهنية، والمواقف الإنسانية، والمقاييس الجمالية ، فهي بحروفها وألفاظها، وتراكيبها كنز مذخور للتعبير الفني أو التصوير الجمالي"[1] .

و لا شكّ أن اختيار الله ﷻ لها – اللغة العربية – لتكون لغة كتابه و رسالته إلى خلقه ، و لغة أهل الجنة أشرف دليل على أنها من بين كل اللغات الأقدر على حمل الرسالة ، بحروفها ، و معانيها ، و حركاتها ، و سكناتها و كل خصائصها المعجمية و التركيبة و الصوتية ...

فمن بين أهم خصائصها بالإضافة إلى المجاز نجد دقة التعبير و الأسلوب المباشر و الواقعية ، و الصورة القرآنية كذلك مثلما تعبر بالمجاز فإنها تعبر بالواقع ، يقول " إبراهيم بن عبد الرحمان الغنيم " : " إن الصورة التي تنقل المشهد بشكله الواقعي، قد تبدو أكثر تأثيرا و إمتاعا، و لا تنقصها القدرة على استثارة المتلقي، و تحريك مشاعره فإن من المشاهد الواقعية ما يحرك العواطف، و يهز الوجدان بمجرد التعرض له"[2].

و البناء اللغوي في أي نصٍ كان يعتمد على مستويات تتدرّج ابتداءً من الحروف إلى الكلمات إلى العبارات ، و كذلك الحال بالنسبة للصورة القرآنية فأسرار التصوير فيها تنطلق من الحروف و تلاؤمها ، مرورا بالكلمات و تناسقها ، وصولاً إلى الآيات و تناسبها ، و يمكن أن نقدم ما عرض له أصحاب البيان من القدماء و المحدثين

1 الراغب أحمد عبد السلام ، وظيفة الصورة الفنية في القرآن ، ص 380 .

2 الغنيم ابراهيم بن عبد الرحمان: الصورة الفنية في الشعر العربي ، ص176 .

حول هاته المكونات أو المقومات " الحروف ، الألفاظ ، الآيات " ، و أثرها في الصورة القرآنية .

الحروف : تعتبر اللبنة الأولى في بناء الصورة الفنية ، حيث تشكل العلاقة بين الحروف انسجاما و تناسقاً ينعكس على الصورة ، بالإضافة إلى خصائص و طبيعة الحروف في حد ذاتها ، و على قدر ترابط الحروف بعضها ببعض و انسجامها داخل الكلمة تنسجم الصورة و وينعكس عليها ذلك التآلف و التلاؤم بين الحروف .

ويعدّ "الرمّاني" أول من تحدّث عن فكرة " التلاؤم " في الحروف في الأسلوب القرآني موضّحا أثر ذلك في النفس .

والتلاؤم بين الحروف، هو نقيض التنافر، وهو على مراتب ، والقرآن الكريم في أعلاها يقول الرمّاني في ذلك: " والمتلائم في الطبقة العليا القرآن كلّه، وذلك بيّن لمن تأمله "[1] .

و في العصر الحديث نجد أن مصطفى صادق الرافعي يرى أن فكرة التلاؤم بين الحروف لا ترجع إلى مخارج الحروف فقط ، بل إن صفاتها و مناسبتها و ترتيبها معنية هي الأخرى ، فقد تحدث عن إعجاز النظم الموسيقى في القرآن ، وأرجع ذلك " لترتيب حروفه باعتبار أصواتها و مخارجها، ومناسبة بعض ذلك لبعضه، مناسبة طبيعية في الهمس والجهر، والشدة، والرخاوة، والتفخيم، والترقيق، والتغشي، والتكرير"[2] ، و هاته العوارض من خلال تفاعلها مع بعضها معنية بتشكيل الصورة ، ويرى الدكتور أحمد عبدالسلام الراغب

أنّ الانسجام أو التناسق بين الحروف في الكلمة القرآنية، يرجع إلى مخارجها، وصفاتها، وحركاتها المتنوّعة، ومن مجموع هذه العلاقات الصوتية، تتكوّن النغمة الموسيقية للكلمة، أو الإيقاع الموسيقى لها ، وهذا الإيقاع الموسيقى للكلمة، مرتبط بالمعنى ، وقد بلغ القرآن

1 الرماني ، النكت ، ص 88 ، عن وظيفة الصورة الفنية في القرآن ، الراغب أحمد عبد السلام ص 381 .

2 إعجاز القرآن: مصطفى صادق الرافعي. ص 215 .

الكريم ، حدّ الإعجاز، في الإيقاع الموسيقى للكلمات، ودلالته على المعنى الديني، وارتباطه بالصورة الفنية المرسومة[1].

الكلمـة :

يصف " الباقلاني " جمال روعة الكلمة القرآنية مفردة ، و متضامّة مع غيرها من الكلمات ، يقول : " انظر في آية آية و كلمة كلمة، فكلٌّ كلمة لو أفردت ، كانت في الجمال غاية ، و في الدلالة آية ، فكيف إذا قارنتها أخواتها و ضامتها ذواتها مما تجري في الحسنِ مجراها، و تأخذ في معناه " [2] .

الكلمـة هي اللبنة الثانيـة ، و هي أسـاس بنـاء الصـورة الفنيـة ، فالاختيـار لبعض الألفـاظ دون الآخـر قد يجعـل من المعنـى أشرف و أوضح ، و يرى الدكتور أحمد عبد السلام الراغب أنّ من بلاغـة التنزيـل الحكيـم و إعجـازه مثلاً كلمة لِباسٌ التي استخدمت في تصوير العلاقة بين الرجل والمرأة في قوله ﷻ : ﴿ هُنَّ لِباسٌ لَكُمْ ﴾[3] هي في دلالتها الحسية تدل على الثوب الذي يستر الجسم، ثم تطورت دلالة اللفظة، لتحمل دلالات مجازية أخرى كقولهم: " لبّس الحقّ بالباطل، والتبس عليه الأمر، ولابست فلانا حتى عرفت دخلته أي خالطته والتبست عليه الأمور، وفي أمره لبس ولبسة بالضم إذا لم يكن واضحا، وفيه ملتبس : مستمتع وفلان قد لبس الناس أي عاش معهم .. ولكل زمان لبسة أي حالة يلبس عليها من شدة أو رخاء ولبست فلانا على ما فيه أي احتملته وقبلته .. ولبست على كذا أذني إذا سكتّ عليه ولم تتكلم وتصاممت عنه، ويقال لباس التقوى الحياء"[4] ، واستخدام هذه اللفظة في القرآن الكريم، توحي بالمعنى الحسي والمعنى المجازي معا، فهي تدل على

1 الراغب أحمد عبد السلام ، وظيفة الصورة الفنية في القرآن ، ص 385 .

2 أبو بكر الباقلاني: إعجاز القرآن. ص190 .

3 البقـــرة: 187

4 المصدر السابق ص 387 عن : أساس البلاغة: للزمخشري. مادة لبس .

طبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة من جانبها المادي، وجانبها المعنوي أيضا بما فيها من عشرة وستر، واستمتاع ومعايشة على الشدة والرخاء والاحتمال والحياء، وغير ذلك، وكلّها معان تحتملها لفظة لغوية واحدة[1] .

الآيــات :

لقد كان لتناسب الآيات فيما بينها من جهة و تناسبها في إطارها العام و سياقها مع معنى النص القرآني من ترغيب أو ترهيب ، فكانت الآيات الجزلة في التركيب مناسبة للجو العام داخل آيات الترغيب ، أما ما كان منه للترهيب فقد انعكست ملامح الشدّة التي يمليها السياق القرآني عليها ، كما أنّ هناك إيقاعاً بين الآيات ينطبق عليه ذلك السياق القرآني ، و هذا الإيقاع من شأنه أن يحدث تأثيره التصويري و هذا ما ذهب إليه " صلاح الدين عبد التواب " في تأكيده على دور الإيقاع في إخراج الصورة " إذْ يحدِث الإيقاع رنينا في جهازنا كله ، فيستولي الأثر على مشاعرنا، و ذلك مِن حيث جزالة الكلمة، و حسن جرسها، و سلامتها من العيوب البلاغية كالتعقيد، و التنافر، مع دقة النظم، و اختيار اللفظ، و مطابقة المعنى و اتفاق الفواصل مع الآيات، مما يضفي الرونق و التأثير على هذا التصوير"[2].

وبالإضافة إلى المقومات اللغوية للصورة القرآنية نجد أنّ ما يقابل اللغة في الثنائية الأزلية هو الفكر فها هو عبد القاهر الجرجاني يؤكد على أهميته في تشكيل الصورة من جهة و من جهة مقابلة دور الصورة في إبراز الفكر و توضيحه والتأثير في المتلقي

1 الراغب أحمد عبد السلام ، وظيفة الصورة الفنية في القرآن ، ص 388 .

2 انظر: صلاح الدين عبد التواب: الصورة الأدبية في القرآن ، ص26 .

يقول الجرجاني: " إن شئت أرتك المعاني اللطيفة التي هي من خبايا العقل كأنها قد جسّمت حتى رأتها العيون ... "[1]

و ما يعنينا هنا ليس الفكر بمفهومه المنطقي ، بل هو ذلك المقابل للشكل ، أو على حد تعبير البلاغيين القدامى " المعاني " ، و أهم عناصر أو مكونات الصورة القرآنية نجد :

الخيال :

و يعتبر الخيال من المقومات الأساسية للصورة حيث يرتبط ارتباطاً مباشراً بالإحساس ، و الخيال ينطلق من الواقع الذي يعتبر مادة أولية له ، فالواقع يمدنا بالمحسوسات نشاهدها و نلمسها ، ثم يبدأ الخيال بتوسيع و تطويع تلك المحسوسات بعد أن تزول من أمام المشاهد ، و تبدأ هنا العملية الإبداعية للخيال من خلال التغيير في بعض خصائص المادة المحسوسة ، فتتشكل الصورة الفنية وفق الذكريات و الصور الذهنية المختزنة وفي هذا يقول ابن سينا : " الشيء قد يكون محسوسا عند ما يشاهد ثم يكون متخيلا عند غيبته بتمثل صورته في الباطن "[2] ، وهذا القول يوضح أن منشأ الخيال هو الواقع ، و أن الخيال هو تصرف في جزئياته و أحداثه ، و ليس بالضرورة أن يكون منافيا و مناقضاً له ، كما تمّ فهمه عن طريق الترجمة المضلّلة لمصطلح التخييل ، حيث أن انتقاله من حقل الفلسفة إلى البلاغة و النقد ، جرّ معه تلك المغالطة في الترجمة من خلال المترجمين لكتب أرسطو الذين ترجموا مصطلح "فنطاسيا " مرة بالتخيل و مرة بالتوهم ، الأمر الذي جعل الكثير من العرب يسيئون الظن بمصطلح " التخيل "و حملوه على معنى " التوهم " ، و يرى الدكتور أحمد عبدالسلام

1 المصدر السابق ، ص 45 عن : الجرجاني ، أسرار البلاغة: ص 33 .

2 جوده عاطف نصر ، الخيال مفهوماته ووظائفه ، ص 13 .

الراغب أنّ من بينهم "عبد القاهر الجرجاني" الذي قسم المعاني إلى عقلية و تخييلية ، ووازن بينهما، واعتبر التخييلي مناقضا للحقيقي ، وفضّل المعنى الحقيقي لأنه مدار الأحاديث النبوية وكلام الصحابة ، ولكنّه – الجرجاني – أحسّ بالحرج والاضطراب أمام استعارات القرآن الكريم التي تعتمد التخييل ، لذلك رأى أن سبيل الاستعارة هي " سبيل الكلام المحذوف، في أنك إذا رجعت إلى أصله وجدت قائله وهو يثبت أمرا عقليا صحيحا ويدعي دعوى لها سنح في العقل "[1].

و خلافا للجرجاني جاء فهم " الزمخشري " لمصطلح التخييل أكثر وضوحاً ، فقد عزله عن أي دلالة للتوهم و لم يكن عنده مناقضاً للحقيقة ، بل كان تجسيماً و تمثيلاً للمعاني المجردة في الذهن و تمثيلاً حسياً لها ، و على دربه سار " سيد قطب " حيث اعتبر التخييل طريقة فنية في التعبير و قاعدة التصوير الأساسية في القرآن الكريم ، حينما خصص له فصلاً بعنوان " التخييل الحسي " في كتابه " التصوير الفني في القرآن".

فالخيال بهذا عنصر أساسي في تشكيل الصورة القرآنية ، لا يعني بأي شكل من الأشكال ابتعادا أو انزياحاً عن الحقيقة ، بل هو أداة لتجسيم المعاني المجردة في الأذهان و تقريبها إلى النفوس بأكبر قدر من الحواس ، فتصبح المعاني المُدركة بالذهن ملموسة باليد و شاخصة أمام العيان .

إنّ الترابط بين أجزاء الصورة القرآنية التي ذكرنا بعضها ينعكس على متلقيها فيصبح تأثره بالنص القرآني تأثراً وجدانيا عبر جميع حواسه ، فتنتقل الصورة القرآنية من خياله إلى نفسه ، و يصبح بذلك مشاهداً لما يسمع و شاهداً على أحداث كأنّما عايشها بتفاصيلها ...

1 الراغب أحمد عبد السلام ، وظيفة الصورة الفنية في القرآن ، ص 49.

2 – التصـوير الفنــي في القــرآن و مظـاهره :

يعرفه 'سيد قطب' بأنه تعبير "بالصورة المحسة عن المعنى الذهني، و الحالة النفسية، و عن الحادث المحسوس، و المشهد المنظور، و عن النموذج الإنساني و الطبيعة البشرية، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة.. فإذا المعنى الذهني، هيأة أو حركة، و إذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد. و إذا النموذج الإنساني شاخص حي، و إذا الطبيعة البشرية، مجسمة مرئية، فأما الحوادث والمناظر و القصص فيردها حاضرة، فيها الحياة، و فيها الحركة، فإذا أضاف إليها الحوار، فقد استوت لها كل عناصر التخييل.. حتى يحيل المستمعين نظارة.. حيث تتوالى المناظر و تتجدد الحركات، و ينسى المستمع أن هذا كلام يتلى، و مثل يضرب، و يتخيل أنه منظر يعرض، و حادث يقع.. فإذا ما ذكرنا ان الأداة التي تصور المعنى الذهني و الحالة النفسية، و تشخص النموذج الإنساني، أو الحادث المروي، إنما هي ألفاظ جامدة، لا ألوان تصور، و لا شخوص تعبر، أدركنا بعض أسرار الإعجاز في هذا اللون من ألوان التعبير"[1]. و هو تعريف جامع لجزئيات كثيرة يتجلى من خلالها التصوير الفني كالتجسيم، و التشخيص، و التخييل، و اللوحة، و المشهد..

والصورة عنده– كما يلاحظ في تحليله للآيات القرآنية– هي كل تقديم حسي للمعنى، سواء أكان هذا التقديم الحسي يعتمد الأنواع البلاغية القديمة أم يتجاوزها إلى غيرها من العبارات الحقيقية التي تثير مخيلة المتلقي وإن لم تكن قائمة على المجاز ، بهذا المفهوم وجد "سيد قطب" أن أسلوب القرآن كلّه تصويري ما عدا آيات التشريع ، وهذا الأسلوب

1 سيد قطب ، التصوير الفني في القرآن. دار الشروق. ط3 سنة 1993. ص36–37 .

التصويري هو سرّ إعجازه ، فقد كان هذا الأسلوب المصوّر، مؤثرا في المؤمنين والكافرين على السواء[1].

كمـا أنّ التصوير في القرآن الكريم ، ليس تصويرا شكلياً بل هو تصوير شامل " فهو تصوير باللون ، وتصوير بالحركة وتصوير بالتخييل ، كما أنه تصوير بالنغمة تقوم مقام اللون في التمثيل ، وكثيرا ما يشترك الوصف والحوار ، وجرس الكلمات ، ونغم العبارات ، وموسيقى السياق في إبراز صورة من الصور "[2].

وقد ميز "سيد قطب" بين نوعين من الصور في القرآن الكريم، صور محسوسة، مستمدة من عالم الحواس، وصور متخيلة، وهذا ما يفهم من قوله: " يعبّر بالصورة المحسّة المتخيلة "[3] .

كمـا قد يكون التخييل بالتجسيم الفني ، و قد يكون بالتشخيص .

أ – **التخييل بالتجسيم الفني** : الّتجسيم في اللغة : الجسم جماعة البدن أو الأعضاء من الناس، والإبل، والدّواب، وغيرهم من الأنواع عظيمة الخلق ، يقال تجسّمت الأمر : إذا ركبت أجسمه و جسيمه ومعظمه .

أمـا التجسيم الفنـي فهو" إبراز المعنويات في أجسام محسوسة و ملموسة على العموم و الشمول ، و الإعجاز القرآني حول هذه المعنويات إلى حياة فيها حركة و إحساس بعد أن كانت ساكنة باهتة جامدة ، و في ذلك إثارة ، و جمال، و تدبر ، و تفكر في كل ما تقع عليه الحواس في هذا الوجود" ، و يوضّح " سيد قطب " قائلا : " و لكن الذي

1 سيد قطب ، التصوير الفني في القرآن ، ص : 17 .

2 الخالدي عبد الفتاح ، نظرية التصوير الفني عند سيد قطب ، المؤسسة الوطنية للفنون ، الجزائر،1988 ص 33.

3 المصدر السابق ، ص 71 .

نعنيه هنا بالتجسيم ، ليس هو التشبيه بمحسوس ، فهذا كثير معتاد ، إنما نعني لونا جديداً هو تجسيم المعنويات ، لا على وجه التشبيه و التمثيل ، بل على وجه التصيير و التحويل ، بقول﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴾[1] ، أو ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[2] ، أو﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾[3] ، فيجعل هذا العمل المعنوي مادة محسوسة ، تحضر على وجه التجسيم ، أو تحضر على وجه التشخيص ، أو توجد عند الله كأنها وديعة تُسلّم هنا فتُتَسلّم هناك "[4].

إلاّ أنّ التجسيم في القرآن يحمل على معناه الاستعاري لا الحقيقي فالإسلام دين التجريد و التنزيه[5].

ب – التخييل الحسي : وقد تحدّث سيّد قطب عن صور القرآن بوعي نقدي جمالي فقال : " قليل من صور القرآن هو الذي يعرض صامتاً ساكناً...، أمّا أغلب الصور ففيه حركة مضمرة أو ظاهرة ، حركة يرتفع بها نبض الحياة و تعلو بها حرارتها ... وهي حركة حيّة مما تنبض به الحياة الظاهرة للعيان ، أو الحياة المضمرة في الوجدان هذه الحركة هي التي نسميها " التخييل الحسّي" ، وهي التي يسير عليها التصوير في القرآن لبثّ الحياة في شّتى الصور مع اختلاف الشّيات والألوان[6] .

---

1 آل عمران : 30 .

2 الكهف : 49 .

3 البقرة : 110 .

4 سيد قطب ، التصوير الفني في القرآن ، ص 79–80 .

5 انظر: سعود مريم ، البعد التصويري في القرآن الكريم سورة يوسف انموذجا ، رسالة ماجستير ، 2005– 2006 ، جامعة الجزائر ، ص29 .

6 سيد قطب ، التصوير الفني في القرآن ، ص 63 .

و التخييل الحسي ينقسم إلى عدة ألوان أو أنواع ذكرها سيد قطب في نظريته هي : التشخيص، وحركة الساكن، وتوقع الحركة التالية ، وحركات سريعة متخيلة... نذكر منها :

أ- التشخيص :

يعبّر عنه " سيد قطب " فيقول : " يتمثّل في خلع الحياة على المواد الجامدة ، و الظواهر الطبيعية ، و الانفعالات الوجدانية ، هذه الحياة التي قد ترقى فتصبح حياةً إنسانية ، تشمل المواد و الظواهر و الانفعالات ، و تهب لهذه الأشياء كلّها عواطف آدميّة ، و خلجات إنسانية تشارك بها الآدميين ، و تأخذ منهم و تعطي ، و تتبدّى لهم في شتى الملابسات ، و تجعلهم يحسّون الحياة في كل شيءٍ تقع عليه العين ، أو يتلبس به الحس ..."[1] ، و هذا التعريف للتشخيص لا يعني بأنّ " سيد قطب " يحمل التشخيص في القرآن الكريم على المجاز ، بل على الحقيقة على اعتبار أن المشخصات حقائق خافية عنا ، ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[2] .

وينتقل "سيد قطب" برأيه إلى الاتجاه المعاكس فهو يرى بأنّ التصوير قد لا يعتمد على الخيال ، فيجنح إلى ألفاظ حقيقيّة و لكن يضاف إليها عنصر مثل الإيقاع .

ب – حركة الساكن :

و تتمثل في الحركة المعطاة للأشياء الساكنة أو من طبيعتها السكون و ذلك بجعلها متحركة .

ج – تخييل بتوقع الحركة التالية :

1 نفسه ، ص : 63 .

2 الإسراء : 44 .

و هذا اللون من ألوان التخييل يعتمد بالأساس على فكر المتلقي ، بحيث يعمد إلى إعطاء مفاتيح و إيحاءات تجعل المتلقي يتفاعل مع التصوير، إلّا أنّ المشهد لا يكتمل و يتوقف عند لحظة معينة ، فيعمل حس القارئ و خياله على تخيلها و تصور حدوث الحركة التالية في أية لحظة ، و يورد " سيد قطب " أمثلة عن ذلك فيقول : " فصورة الذي يعبد الله على حرف ﴿ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ ﴾[1] ، و صورة المسلمين قبل أن يسلموا ، ﴿ وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ﴾[2] ، و صورة الذي ﴿ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾[3] ، كلها تخيل للحس حركة متوقعة في أي لحظة .." [4] .

د – حركات سريعة متخيّلة :

و في هذا اللون من التخييل يترك المجال للخيال عند رسم بعض الصور ، ليتمثل حركات سريعة متتابعة متخيلة يكمل بها ملامح الصورة .

– التناسق الفنّي:

يعتبر التناسق الفني من بين أهم الأسس التي تعتمد عليها نظرية التصوير الفني فهو بمثابة المعيار الذي يبين مدى الترابط بين الأفكار و المعاني من جهة ، و الألفاظ و تراكيبها ، و الحروف و مخارجها ، و المقاطع و إيقاعاتها من جهة أخرى ...

1 الحج : 11 .

2 آل عمران : 103 .

3 التوبة : 109 .

4 سيد قطب ، التصوير الفني في القرآن ، ص 75 .

و لفهم التناسق الفني نعرج أولاً على معناه و أصله اللغوي : " التناسق مصدر تناسق مثل تقادم و تكاثر و تفاهم و قد أورده صاحب لسان العرب تحت مادة : (ن، س، ق) قوله: النسق من كل شيء ما كان على طريقة نظام واحد عام في الأشياء و قد نسقته تنسيقا، و يضيف " ابن سيده الأندلسي " نسق الشيء ينسقه نسْقا و نسَقا ، و نسّقه نظمه على السواء، و انتسق فهو متناسق و الاسم النسق، و ثغر نسق ، إذا كانت الأسنان مستوية ، و التنسيق التنظيم ، و النسق ما جاء من الكلام على نظام واحد ، و التنسيق يقال للكلام إذا كان مسجعا قيل له نسق حسن ، قال " ابن الأعرابي" : اتسق الرجل إذا تكلم سجعا "[1]

و التناسق في الاصطلاح يصب في نفس الاتجاه اللغوي ، إلاّ أنّ ما يعنينا هنا ليس التناسق عموما ، و إنما التناسق الفني أو التعبيري و هو " أن يهيئ الأديب أو الباحث في علوم القرآن– لحظة التعبير– للألفاظ نظاما و نسقا و جوا يسمح لها أن تشع شحنتها من الصور و الظلال و الإيقاع ، و أن تتناسق ظلالها و إيقاعاتها مع الجو الشعوري الذي تريد أن ترسمه ، و ألا يقف عند الدلالة المعنوية الذهنية ... و التناسق في القرآن الكريم بلغ حد الإعجاز في ألوانه و درجاته و آفاقه ، فمن نظم فصيح إلى سرد عذب، إلى معنى مترابط إلى نسق متسلسل، إلى لغة مشعة، إلى تعبير مصور، إلى تصوير مشخص، إلى تخيل مجسم، إلى موسيقى منغمة، إلى اتساق في الأجزاء إلى تناسق في الإطار، إلى توافق في الموسيقى ، إلى افتنان في الإخراج ، و بين هذا الكل يتم الإبداع و يتحقق الإعجاز بالرسم و الرصف و العبارة و الإشارة ..."[2]

---

1 بن سليمان يوسف ، خطرات بيانية لمعنى التناسق الفني في بعض المقاطع القرآنية بين القدامى و المحدثين ، ج 1 ، ص 5 .

2 نفســه ، ص 5 .

و قد يجنح البعض بتأويلهم لمعنى الفن و اقترانه بالقرآن الكريم ، على اعتبار التأويلات التي تخرج بالفن من مدلول الجمال إلى مدلول الإبداع ثم الابتداع أو الاختراع ، و هذا ما لا يُقبل ، ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (21) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (22)﴾[1] ، و يتعجب " سيد قطب " من ذلك الجنوح فيقول : " و لم يجل بخاطري قط أن الفن بالقياس إلى القرآن معناه: الملفق أو المخترع أو القائم على مجرد الخيال، و ذلك أن دراستي الطويلة للقرآن لم يكن فيها ما يلجئني إلى هذا الفهم ... و إني لأعجب لم تنصرف كلمة الفنّ حتما إلى الملفق و المخترع و الابتداع الذي لا يسنده الواقع ، و الاختراع الذي يخرج على المعقول ، لماذا ؟ ... "[2] .

لقد كان لسيد قطب نظرته إلى التناسق الفني في القرآن الكريم بعيداً عن كل تلك التأويلات ، فكان يرى بأن القرآن الكريم لم يغفل عن الجانب الفني و ما يمتلكه من تأثير في النفوس ، و قد لاحظ أن التعبير القرآني يمزج بين الغرض الديني و الغرض الفني فيما يعرضه من الصور و المشاهد .

بل يذهب " سيد قطب " أبعد من ذلك حينما يربط قوة التذوق الفني و عمق الحس الوجداني بالقابلية و الاستعداد للتأثر الديني ، حيث أنّه في الكثير من الأحايين تساعد التعابير القرآنية المصوّرة لمشاهد ترغيبية أو ترهيبية ، على التأثر و الخشوع ، على الرهبة من وعيد المولى أو الاشتياق لموعوده .

1 البروج : 22 .

2 سيد قطب ، التصوير الفني في القرآن ، ص 80 .

غـايات التصـوير الفـنّي في القرآن :

الصورة القرآنية عمـوما و التصوير الفني في القرآن الكريم ذو دلالات دينيـة و نفسيـة قبل أن يكونا ذا بعـد جمـالي فحسب ، فالتدبر في آيات الله ﷻ من خلال تلك اللمحـات البلاغيـة التي تؤدي مؤداً لا يستطيع أي أسلـوب مغاير سواءً على مستـوى الآيـة أو الكلمـة أو حتـى الحروف أن يؤديـه بنفس الثقل و العمق الدلالي و الإيحـائي ، يجعل التذوق لتلك الآيات و النصوص القرآنية تذوقاً وجدانيـا و حسيـاً ، فترى العين المشاهد شاخصة أمـامـها ، و تسمع الأذن الأصوات من خلال الأجراس و الإيقاع و يكاد يتذوق اللسـان طعم الموصوفات عبر براعـة الوصف و التشبيـه ، و من بين غـايات التصويـر نذكـر :

– التكثيف الدلالي من خلال الإيجـاز في التعبير و اختصار المسافات الطويلة ، فمـا يُؤدى في عدة جمل أو سطور قد يؤدى في صورة أو مثل أو تشبيه ، فالقليل يؤدي الكثير بالاعتـماد على الخيال ، و هنا تحفيز و دعـوة لتفاعل المتلقي من خلال فكره الإبداعي و مخزون ذكرياته في تمثل و تخيل أبعـاد الصورة ، و هذا أسلوب اعتمده الله ﷻ من خلال الإيجـاز و الإضمـار المقصود في بعض آيات التنزيل الحكيم .

– التصوير الفني و اعتمـاد الصور القرآنيـة كـالكنـايات و التشبيـهات يضيف تأثيـراً حسيـاً إلى جانب ذلك الوجداني ، حتى يصل النص إلى المتلقـي عبر أكبـر قدر من المنافـذ التواصلية (الحسية و الوجدانية) و هذا من شأنـه أن يزيد وضـوح و رسوخ الرسالة أو النص .

– التصوير الفني في القرآن يترك أثراً ، فلطالما كانت الأمثال التي يضربها المولى ﷻ في وعظ الخلائق أشد تأثيراً و أبقى أثراً ، فقوله : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (261) ﴾[1] يجعل من المتصدق أو المزكّي لأمواله يتذكر تلك الصورة المادية – للحبة التي أنبتت السنبلات السبع التي ينبثق عن كلٍّ منها مائة حبة – ويتواصل تأثره بتلك الصورة المادية ما ظلّت – الصورة – تتشكّل و تشعّ بالحياة في خياله .

– يعتبر التصوير الفني في حد ذاته أداة من أدوات البيان و وجه من وجوه الإعجاز ، و الشواهد القرآنية التي تزخر باللطائف المعجزة في لفظها أو وزنها أو ترتيبها ، أو تناسق حروفها و عباراتها ، كل ذلك من جهة و مؤداها و غرضها من جهة أخرى كثيرة ، في حين أن البشر في مرّات كثيرة يضطرون للتنازل عن بعض الأفكار التي يريدون التعبير عنها بسبب عدم إيجاد ما يقابلها و يعبر عنها من ألفاظ أو تراكيب و في هذا السياق قيل " طبيعة الإنسان أنه لا يستطيع أن يطوّع ألفاظ اللغة لكل ما يتصوره مِن دقائق المعاني و الأخِيلة ، فهو كثيراً ما يضطر أن ينزل عن بساط خياله المحلق ، لحاقاً بكلمةٍ هي دون خياله الحالم، و لكنه لا يجد مِن حوله سواها، فيضطر أن يهبط إلى مستواها ، وبذلك يفسد سير فكر تصوراته ، غير أنّ القرآن لا يعجزه أن تكون الكلمةُ دائما في مستوى المعنى المراد على أدق وجه"[2] .

– التأثير الحسي الذي يخلفه التصوير الفني يزيد إلى تلك المعان الذهنية قربا إلى العقل و الوجدان معاً ، حيث غالباً ما تكون المعاني المجردة أقل قدرة على إيصال

1 البقرة : 261 .

2 البوطي ، من روائع القرآن ، ص177 .

الوقائع حتى تتصل بصور حسية و في هذا يقول "سيد قطب": "إن المعاني في الطريقة الأولى، تخاطب الذهن و الوعي، و تصل إليهما مجردة من ظلالها الجميلة .. و في الطريقة الثانية، تخاطب الحِس و الوجدان، و تصل إلى النفس من منافذ شتى من الحواس بالتخييل، و من الوجدان المنفعل بالأصداء و الأضواء، و يكون الذهن منفذاً واحداً من منافذها الكثيرة إلى النفس، لا منفذها الوحيد"[1].

– الصورة القرآنية متواصلة ومترابطة، لتوضيح الحقائق الدينية المطلوبة من وراء الصور المحسوسة ، فتصبح بذلك طريقةً لبناء الإنسان، فكراً وشعورا وسلوكا، من خلال رؤية إسلامية، مجسّدة في الصورة الفنيّة ، خاصّة إذا ما ارتبطت بموضوع القصص القرآني ، الذي يعتبر هو الآخر نوعاً من أنواع بناء السلوك الإنساني .

1 سيد قطب ، التصوير الفني في القرآن ، ص242 .

المبحث الثاني : القصص القرآني

إنّ خير ما نفتتح به حديثنا عن القصص القرآني و خصائصه هو مقتطف من المقدمة السابعة للشيخ " الطاهر ابن عاشور" في تفسيره " التحرير و التّنوير" مبيّنا ما للقصص القرآني من شرفٍ في الغاية و سموٍّ في الأسلوب و حكمةٍ في المناسبة ، حيث يقول : " امتنّ الله على رسوله ﷺ بقوله ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾[1] فعلمنا من قوله ﴿ أَحْسَنَ﴾ ، أن القصص القرآنية لم تسق مساق الإحماض[2] ، وتجديد النشاط ، وما يحصل من استغراب مبلغ تلك الحوادث من خير أو شر ، لأن غرض القرآن أسمى وأعلى من هذا ، ولو كان من هذا لساوى كثيرا من قصص الأخبار الحسنة الصادقة ، فما كان جديرا بالتفضيل على كل جنس القصص .

والقصة : الخبر عن حادثة غائبة عن المخبر بها ، فليس ما في القرآن من ذكر الأحوال الحاضرة في زمن نزوله قصصاً مثل ذكر وقائع المسلمين مع عدوهم ؛ وجمع القصة قصص بكسر القاف ، وأما القصص بفتح القاف فاسم للخبر المقصوص ، وهو مصدر سمي به المفعول ، يقال قص على فلان إذا أخبره بخبر ؛ و أبصر أهل العلم أن ليس الغرض من سوقها قاصراً على حصول العبرة و الموعظة مما تضمّنته القصة من عواقب الخير أو الشر، ولا على حصول التنويه بأصحاب تلك القصص في عناية الله بهم أو التشويه بأصحابها فيما لقوه من غضب الله عليهم كما تقف عنده أفهام القانعين بظواهر الأشياء وأوائلها، بل الغرض من ذلك أسمى وأجل ... إن في تلك القصص لعبراً جمة وفوائد للأمة ، ولذلك نرى القرآن يأخذ من كل قصةٍ أشرف مواضيعها ويعرض عمّا عداه

---

1 يوسف: 03 .

2 من أحمض القوم : أفاضوا فيما يؤنسهم .

ليكون تعرضه للقصص منزها عن قصد التفكّه بها ، من أجل ذلك كله لم تأت القصص في القرآن متتالية متعاقبة في سورة أو سور كما يكون كتاب تاريخ ، بل كانت مفرقة موزعة على مقامات تناسبها، لأن معظم الفوائد الحاصلة منها لها علاقة بذلك التوزيع ، هو ذكرٌ وموعظةٌ لأهل الدّين فهو بالخطابة أشبه ، وللقرآن أسلوب خاص هو الأسلوب المعبر عنه بالتذكير وبالذكر ، فكان أسلوبه قاضياً للوطرين وكان أجلّ من أسلوب القصّاصين في سوق القصص لمجرد معرفتها ، لأن سوقها في مناسباتها يكسبها صفتين: صفة البرهان وصفة التبيان ونجد من مميزات قصص القرآن نسج نظمها على أسلوب الإيجاز ليكون شبهها بالتذكير أقوى من شبهها بالقصص ... "[1] .

1 – مفهـوم القصّـة القـرآنـيّة :

لغـــة :

تناول علماء اللغة و المفسرون بشبه اجمـاع و اتفاق لفظ القصة و مفهومـها ، حيث نجد عندهـم :

القص : فعل القاص ، إذا قصّ القصص و القصة معروفةٌ ، و القصّ اتّبـاع الأثر ، و يقـال : خرج فلانٌ قصصاً في أثر فلان ، و قصّـاً و ذلك إذا اقتفـى أثـره ، و قيل القـاصُّ يقصُّ القَصصَ لاتبـاعه خبراً بعد خبر ، و سَوَقَ الكلام سوقـاً[2] .

و المفـسرون ينظرون إلى المسألـة باعتبـارين : اعتبار لغـوي ، يعتمـدون فيه على ذلك الاشتـقاق اللغوي كمـا سبق ، و اعتبـار ديني : ينظرون فيه من وجهـة نظر خـاصة ، و

1 محمد الطاهر ابن عاشور ، من المقدمـة السابعـة للتحرير و التنوير .

2 ابن منظور : لسان العرب (مادة قصص) .

على رأس هؤلاء الإمام الرّازي – رحمه الله – الذي يجمع بين الاعتبارين ، و يقرب بين الاتجاهين ، وذلك عند تفسيره للآية الكريمة في قوله ﷻ : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (3) ﴾[1] .

فالقصصُ إتّباع الخبر بعضه بعضاً ، و أصله في اللغة المتابعة ، قال تعالى : ﴿ وَ قَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (11) ﴾[2] ، أي اتّبعي أثره ،

و يقول ﷻ : ﴿ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا (64) ﴾[3] ، أي اتّباعاً.

و في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ﴾[4] ، نرى أن القصص هو مجموع الكلام المشتمل على ما يهدي إلى الدين ، و يرشد إلى الحق ، و يأمر بطلب النجاة ، و إذا كان القرآن الكريم قد سمّى الأحداث و الوقائع قصصاً ، فهل هذه التسمية تتلاقى مع المفهوم الاصطلاحي و مع المحتوى الفني للقصة كما هو معروف في الآداب الانسانية قديماً و حديثاً ؟

اصطلاحـــاً :

وفي الاصطلاح : الإخبار عن قضية ذات مراحل يتبع بعضها بعضًا.

وقصص القرآن أصدق القصص لقوله ﷻ : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾[5] وذلك لتمام مطابقتها للواقع .

---

1 يوسف :03 .
2 القصص :11 .
3 الكهف : 64 .
4 آل عمران :62 .
5 النساء : 87 .

وأحسن القصص لقوله ﷻ : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾[1] وذلك لاشتمالها على أعلى درجات الكمال في البلاغة وجلال المعنى .

وأنفع القصص لقول المولى ﷻ :﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[2] وذلك لقوة تأثيرها في إصلاح القلوب والأعمال والأخلاق[3]

إن العودة إلى المعنى اللغوي للقصة جديرة بأن تُرينَا أنّ أصل اشتقاقها –أي القصة– يتلاقى مع المفهوم الذي قام عليه أصل التسمية للقصص القرآني ، فالقصّة مشتقة من القص و هو تتبع الأثر كما أسلفنا ، و من هذا قولهم : قص الأثر أي نظر فيه و اقتفى أثاره و شواهده ، يُقال قصصت أثره و اقتصصته و تقصّصتُه و خرجت في أثر فلان قصصا ، و قصّ عليه الرؤيا و الحديث ، و في قول المولى ﷻ: ﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ (5)﴾[4] .

يقول "عبدالكريم الخطيب" عن القصة في القرآن أنها : " إنما تتتبَّعٌ أحداثاً ماضيةً واقعةً ، و تعرض منها ما ترى عرضه ، و من هنا كانت تسمية الأخبار التي جاء بها القرآن الكريم قصصاً ، مما يدخل في المعنى العام لكلمة "خبر" أو " نبأ " ؛ و قد استعمل القرآن الكريم الخبر و النبأ بمعنى التحدث عن الماضي ، و إن كان قد فرّق بينهما في المجال الذي استُعمِلا فيه ، جرياً على ما قام عليه نظمه من دقة و إحكامٍ و إعجاز ، فاستعمل النبأ و الأنباء في الإخبار عن الأحداث البعيدة ، زمناً أو مكاناً على حين أنه

1 يوسف : 03 .
2 يوسف : 111 .
3 انظر : الشيخ محمد بن صالح العثيمين ، أصول في التفسير ، ص : 52–53 .
4 يوسف :05 .

استعمل الخبر و الأخبار في الكشف عن الوقائع القريبة العهد بالوقوع أو التي لا تزال مشاهدها قائمة ماثلة للبيان "[1] .

واذا نظرنا إلى قول المولى ﷻ : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ ﴾[2] يتّضح لنا أن القرآن الكريم قد وصف القصص بأنباء الغيب ، ذلك أنّ القصص جاء بالأخبار التي بعُد الزمن بها و اندثرت أو كادت تندثر ، و يلاحظُ أن القرآن الكريم يجيءُ بالماضي البعيد في عرض أحداثه دون أن يكون فيه شيءٌ من واقع الحال أو متوقعات المستقبل .

2 – أنواع القصص القرآني :

والقصص في القرآن ثلاثة أنواع :

النوع الأول : قصص الأنبياء ، وقد تضمن دعوتهم إلى قومهم ، والمعجزات التي أيدهم الله بها ، وموقف المعاندين منهم ، ومراحل الدعوة وتطورها وعاقبة المؤمنين والمكذبين ، كقصة نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وهارون ، وعيسى ، ومحمد ، وغيرهم من الأنبياء والمرسلين ، عليهم جميعًا أفضل الصلاة والسلام .

النوع الثاني : قصص قرآني يتعلق بحوادث غابرة ، وأشخاص لم تثبت نبوّتُهم ، كقصة الذين أخرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ، وطالوت وجالوت ، وابني آدم ، وأهل الكهف ، وذي القرنين ، وقارون ، وأصحاب السبت ، و مريم ، وأصحاب الأخدود ، وأصحاب الفيل ونحوهم .

1 عبدالكريم الخطيب : القصص القرآني في منطوقه و مفهومه ، دار الفكر العربي ، ص45 .

2 الكهف : 13 .

النوع الثالث : قصص يتعلق بالحوادث التي وقعت في زمن رسول الله ﷺ كغزوة بدر و أُحد في سورة آل عمران ، وغزوة حنين وتبوك في التوبة ، وغزوة الأحزاب في سورة الأحزاب ، والهجرة ، والإسراء ، ونحو ذلك .[1]

3 – موضوع القصص القرآني :

القرآن الكريم هو كتاب الله ﷻ الذي يتضمّن كلماته إلى خاتم رسله وأنبيائه محمد ﷺ ، فهو كتاب الدين كله ، وهو عمدة الملة وروح الوجود الإسلامي ، منه تستمد العقيدة والشريعة والأخلاق ، فهو كتاب لكل الأزمان جعله الله هدى للعالمين من الإنس والجان ، كل شيء فيه لحكمة وقد قصّ الله علينا في كتابه أحسن القصص ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾[2] ، وهذا يتناول كل ما قصّه الله علينا في كتابه العظيم ، وكان القصص القرآني " يتحدث عن أحوال الكفار مع انبيائهم ، و عن الشرك بأنواعه ، و الكفر و أسبابه ، و اللوطية ، و الفراعنة ، و الظالمين ، و سائر ضروب الفسق ، كما يتحدث عن قطع الرحم ، و العقوق و الكذب ، و خلف العهود"[3] ، "و إثبات الوحي ، و وحدانية الله ، و توحد الأديان في أساسها ، و الإنذار و التبشير ، و مظاهر القدرة الالهية ، و عاقبة الخير و الشر ، و الجزع و الشكر ، وكثير من الأمور الأخرى"[4] .

1 المصدر السابق ، ص 55 .

2 يوسف : 3 .

3 بكري شيخ أمين ، التعبير الفني في القرآن ، ص 218 .

4 سيد قطب ، التصوير الفني ، ص111 ؛ و انظر عبدالكريم الخطيب ، القصص القرآني ، ص12 .

4 – أهـداف و فـوائد القصص القـرآنــي :

وللقصص القرآني أهداف و فوائد نجمل أهمها فيما يأتي[1] :

أ – الأهــداف :

1– إيضاح أسس الدعوة إلى الله ، وبيان أصول الشرائع التي يبعث بها كل نبي ، يقول ﷻ : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾[2].

2– تثبيت قلب رسول الله ﷺ وقلوب الأمة المحمدية على دين الله وتقوية ثقة المؤمنين بنصرة الحق وجنده ، وخذلان الباطل وأهله ، يقول المولى ﷻ : ﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [3] .

3– تصديق الأنبياء السابقين وإحياء ذكراهم وتخليد آثارهم .

4– إظهار صدق محمدٍ ﷺ في دعوته بما أخبر به عن أحوال الماضين عبر القرون والأجيال .

5 – مقارعته أهل الكتاب بالحجة فيما كتموه من البيّنات والهدى ، وتحديه لهم بما كان في كتبهم قبل التحريف والتبديل ، كقوله ﷻ : ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾[4]

---

1 انظر ، الشيخ مناع القطان، مباحث في علوم القرآن ، ص 317–318 .

2 الأنبياء : 25 .

3 هـــود: 12 .

4 آل عمران: 93 .

6- والقصص ضربٌ من ضروبِ الأدبِ ، يصغى إليها السامع ، وترسخ عبره في النّفس ، يقول ﷻ : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [1] .

7- بيـان حكم الله تعالى فيما تضمنته هذه القَـصص .

8- بيان عدلـه تعـالى بعـقوبة المكذبين لقوله ﷻ عنهم : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾[2]

9- بيـان فضـلـه تعالى بمثوبة المؤمنين لقوله ﷻ : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ (34) نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴾ [3] .

10- تسلية النبي ﷺ عمّـا أصابه من المكذبين له ، يقول ﷻ : ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (25) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾[4].

11- ترغيب المؤمنين في الإيمان بالثبات عليه والازدياد منه إذ علموا نجاة المؤمنين السابقين وانتصار من أمروا بالجهاد ، يقول المولـى ﷻ : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾[5]

---

1 يوســـف: 111 .
2 هـــود : 101 .
3 القمر : 34-35 .
4 فاطر : 25-26 .
5 الأنبياء : 88 .

– 12 إثبات رسالة النبي ﷺ ، ذلك أنّ أخبار الأمم السابقة لا يعلمها إلاّ الله ﷻ لقوله : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[1] ، وقوله ﷻ : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ﴾[2] .

ب – الفوائـــد :

جاء القصص القرآني بأسلوب بديع في مظانّ الاتعاظ به مع المحافظة على الغرض الأصلي الذي جاء به القرآن من تشريع وتفريع ، وقد جمع من ذلك عشر فوائد :

الفائدة الأولى : أن قصارى علم أهل الكتاب في ذلك العصر كان معرفة أخبار الأنبياء وأيامهم ، وأخبار من جاورهم من الأمم، فكان اشتمال القرآن على تلك القصص التي لا يعلمها إلا الرّاسخون في العلم من أهل الكتاب تحديًا عظيما لأهل الكتاب ، وتعجيزاً لهم بقطع حجتهم على المسلمين .

الفائدة الثانية : من أدب الشريعة معرفة تاريخ سلفها من التشريع من الأنبياء بشرائعهم ، فكان اشتمال القرآن على قصص الأنبياء وأقوامهم تكليلاً لهامة التشريع الإسلامي بذكر تاريخ المشرعين ، وهي من فتوحات الله لنا ؛ والقصص القرآني لا يدخل في التفاصيل من ذكر أسماء أو بيان أنساب أو تعديد بلدان ، إذ العبرة برسوخ الإيمان وضعفه وأثر العناية الإلهية أو الخذلان ، فمواضع العبرة في قدرة الله تعالى في قصة أصحاب الكهف خير دليل ، فلم يذكر أية مدينة عند قوله ﷻ : ﴿ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ ﴾[3] لأن

1 هـــــود : 49 .
2 ابـراهيـم : 09 .
3 الكهـف : 19 .

موضع العبرة هو انبعاثهم و وصول رسولهم إلى المدينة ، على عكس ما ذهبت إليه الكتب السماوية الأخرى – التوراة والإنجيل– من ذكر الأسماء وتفصيل الأنساب والأماكن والبلدان مما ليس له حاجةٌ وتعلقٌ بأحداث القصة .

الفائدة الثالثة : فائدة تاريخية في معرفة ترتب المسببات على أسبابها في الخير والشر والتعمير والتخريب لتقتدي الأمة وتحذر، يقول ﷻ : ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[1] وما فيها من فائدةِ ظهورِ المُثل العليا في الفضيلة وتزكية النفوس.

الفائدة الرابعة : فيها موعظةٌ للمشركين بما لحق الأمم التي عاندت رسلها، وعصت أوامر ربها حتى ينتهوا عن غلوائهم ، ويتعظوا بمصارع نظرائهم وآبائهم قال المولى ﷻ : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾[2] .

الفائدة الخامسة : في حكاية القصص أسلوب التوصيف والمحاورة و ذلك أسلوب لم يكن معهوداً للعرب ، فكان مجيئه في القرآن ابتكارَ أسلوبٍ جديدٍ في البلاغة العربية شديد التأثير في نفوس أهل اللّسان ، وهو من إعجاز القرآن .

الفائدة السادسة : العرب بتوغُلِ الأمية والجهل فيهم ، أصبحوا لا تهتدي عقولهم إلاّ بما يقع تحت الحس ، فكان في ذكر قصص الأمم توسيع لعلم المسلمين بإحاطتهم بوجود الأمم ومعظم أحوالها، قال ﷻ : ﴿ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴾[3] .

---

1 النمل : 52 .

2 يوسف : 111 .

3 إبراهيم : 45 .

الفائدة السابعة : تعويد المسلمين على معرفة سعة العالَم وعظمة الأمم ، والاعتراف لها بمزاياها حتى تُدفع عنهم وصمة الغرور كما وعظهم قوله ﷻ في قوم عاد ﴿ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾[1] .

الفائدة الثامنة : أن ينشئ في المسلمين همّة السعي إلى سيادة العالَم كما ساده أممٌ من قبلهم .

الفائدة التاسعة : معرفة أن قوة الله تعالى فوق كل قوة ، وأن الله ينصر من ينصره ، وأنهم إن أخذوا بوسيلتي البقاء من الاستعداد والاعتماد ، سلِموا من تسلّطِ غيرهم عليهم .

الفائدة العاشرة : يحصل منها بالتبع فوائد في تاريخ التشريع والحضارة وذلك من شأنه أن يفتق أذهان المسلمين للإلمام بفوائد المدنية .

5 – الإعجاز في القرآن الكريم :

أ – تعريف المعجزة :

لغة : أصلها مأخوذ من (عجز) قال ابن فارس : العين و الجيم و الزّاء ، أصلان صحيحان ، يدل أحدهما على الضعف ، و الآخر على مؤخر الشيء[2]

اصطلاحاً : أمر خارق للعادة ، مقرون بالتحدي ، سالم من المعارضة ، يجريه الله على يد نبيه ، شاهداً على صدقه .

ب – المعجزة في القرآن الكريم :

1 فصّلت : 15 .

2 ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة ، مادة عجز ، ص 738 .

ورد في القرآن الكريم استعمال مشتقات كلمة (عجز) نحو ست و عشرين مرة ، لكنه لم يرد استعمال مصطلح (معجزة) و لا (إعجاز) في القرآن و لا في السنة .

و لم يعرف إطلاق مصطلح (معجزة) على الأمور الخارقة التي تظهر على أيدي الأنبياء عليهم السلام إلاّ في أواخر القرن الثاني تقريبا[1] .

ج – أطلق القرآن على المعجزة عدة مسميات منها :

1–الآية : يقول ﷻ على لسان فرعون المخاطب لموسى عليه السلام : ﴿ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [2]

2– البينة : قال موسى عليه السلام لفرعون :﴿ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾[3]

البرهان : قال المولى ﷻ مخاطباً موسى عليه السلام بعدما أمره أن يلقي عصاه فإذا هي حية تسعى ، و أن يخرج يده فإذا هي بيضاء من غير سوء : ﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾[4].

3– السلطان : يقول ﷻ : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (45) إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾[5]

د – المراد بإعجاز القرآن الكريم :

1 مصطفى مسلم ، مباحث في إعجاز القرآن ، ص 13 .

2 الأعراف : 106 .

3 الأعراف : 105 .

4 القصص : 32 .

5 المؤمنون : 45–46 .

للعلماء في تعريف الإعجاز تختلف ألفاظها و تتحد معانيها ، منها تعريف " الهمداني" أن معناه:" أنه يتعذر على المتقدمين في الفصاحة فعل مثله ، في القدر الذي اختص به "[1] و يمكن تعريفه بقولنا : هو عجز المخاطبين بالقرآن وقت نزوله و من بعدهم إلى يوم القيامة عن الإتيان بمثل هذا القرآن ، مع تمكنهم من البيان و تملكهم لأسباب الفصاحة و البلاغة ، و توفر الدواعي ، و استمرار البواعث .

و المعجزات نوعان : معجزات حسية ، و معجزات عقلية ؛ يقول الإمام السيوطي : " و أكثر معجزات بني اسرائيل كانت حسية لبلَادتهم و قلة بصيرتهم ، و أكثر معجزات هذه الأمة عقليّة لفرط ذكائهم و كمال أفهامهم ، و لأّن هذه الشريعة لمّا كانت باقيةً على صفحات الدّهر إلى يوم القيامة خُصّت بالمعجزة العقلية الباقية ، ليراها ذوو البصائر "[2] .

هـ – وجوه الإعجاز :

و قد بيّن المفسرون للإعجاز وجوهاً كثيرة تصل إلى خمسة و ثلاثين وجهاً ، من خلال نظمه و تصويره و علومه وغيبه و غير ذلك ، و عن وجوه الإعجاز يقول الشيخ "ابن عاشور" في المقدمة العاشرة من تفسيره " التحرير و التنوير" : " وإذ قد كان تفصيل وجوه الإعجاز لا يحصره المتأمل كان علينا أن نضبط معاقدها التي هي ملاكها ، فنرى ملاك وجوه الإعجاز راجعا إلى ثلاث جهات :

الجهة الأولى : بلوغه الغاية القصوى مما يمكن أن يبلغه الكلام العربي البليغ من حصول كيفيات في نظمه ، مفيدةٍ معانيَ دقيقةٍ ونكتًا من أغراض الخاصة من بلغاء العرب مما لا

1 الهمداني عبدالجبار ، المغني في أبواب التوحيد و العدل ، ج 16 ، إعجاز القرآن ، ص 226 .

2 السيوطي ، الإتقان ، ج 2 ، ص 116 .

يفيده أصل وضع اللغة ، بحيث يكثر فيه ذلك كثرة لا يدانيها شيء من كلام البلغاء من شعرائهم وخطبائهم .

الجهة الثانية : ما أبدعه القرآن من أفانين التصرف في نظم الكلام مما لم يكن معهودا في أساليب العرب ، ولكنه غير خارج عما تسمح به اللغة .

الجهة الثالثة : ما أودِع فيه من المعاني الحكيمة والإشارات إلى الحقائق العقلية والعلمية مما لم تبلغ إليه عقول البشر في عصر نزول القرآن وفي عصور بعده متفاوتة .

وقد عدّ كثير من العلماء من وجوه إعجاز القرآن ما يعد جهة رابعة هي ما انطوى عليه من الأخبار عن المغيَّبات مما دل على أنه منزل من علام الغيوب، وهو معجز للعرب الأميين خاصة وليس معجزا لأهل الكتاب .

فإعجاز القرآن من الجهة الأولى والثانية متوجه إلى العرب، ثم قد يشارك خاصةَ العرب في إدراك إعجازه كل من تعلم لغتهم ومارس بليغ كلامهم وآدابهم من أئمة العربية في مختلف العصور .

والقرآن معجز من الجهة الثالثة للبشر قاطبة إعجازا مستمرا على ممر العصور، لأنه قد يدرك إعجازه العقلاء من غير الأمة العربية بواسطة ترجمة معانيه التشريعية والحِكمية والعلمية والأخلاقية ، وهو دليلٌ تفصيليٌ لأهل تلك المعاني ، و إجماليٌ لمن تبلغه شهادتهم بذلك .

وهو من الجهة الرّابعة – عند من اعتبروها زائدة عن الجهات الثلاث– معجز لأهل عصر نزوله إعجازاً تفصيلياً ، ومعجز لمن يجيء بعدهم ممن يبلغه ذلك بسبب تواتر نقل القرآن ، وتعيّن صرف الآيات المشتملة على هذا الإخبار إلى ما أُريد منها "[1] .

1 الطاهر ابن عاشور ، التحرير و التنوير ، من المقدمة العاشرة .

المبحث الثالث : التكرار في القصص القرآني

مما يشغب به الشّاغِبون ، هو ما حواه القرآن من تكرار ، فظنّ من لم يفهم سنن العرب الذين نزل القرآن بلغتهم أنه عيب ، ذلك أن التكرار ظاهرة فاشية في الكلام البليغ ، تراها في أشعار الجاهليين والمحدثين ، وفي نثر أمراء البيان في شتى العصور ، على نحو ما تراها في القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، ذلك أنّ له أسبابه و دوافعه الكامنة في فطرة النفس ، تثيرها وتحركها مواقف الحياة .

و التَكرار ليس كما يُظنّ به ظنّ السوء ، بل هو فنٌ بلاغيٌ أصيل و وسيلة بيانية لا ينجع في موضعها غيرها ، وسواء وافقنا البلاغيين على أنه إطناب أو خالفناهم ، فقيمة التكرار الفنية تجعله في منعة من أن يُعاب ، و في عزة من أن ينال منه .

وقد نظّر ابن قتيبة للتكرار في القرآن الكريم ، بالتكرار عند العرب وأبان أنه جاء على سننهم ، وعلى مذاهبهم ، في فنّ القول ، يقول في كتابه : " تأويل مُشكل القرآن " : " و أمّا تكرار الكلام من جنس واحد ، و بعضه يجزئ عن بعض ، كتكراره في قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾[1] ، فقد أعلمتك أن القرآن نزل بلسان القوم ، وعلى مذاهبهم ، ومن مذاهبهم التكرار لإرادة التأكيد والإفهام ، كما أن من مذاهبهم الاختصار لإرادة التخفّف والإيجاز "[2] ، وابن الأثير يخصّ بالتكرار ما أهــمّ و اشتدّت به العناية ، فيقول في : "المثل السائر" : " إنّ التكرير إنما يأتي لما أهمّ من الأمر ، بصرف العناية إليه ، ليثبت و يتقرر "[3] ، وهو يصرح بأنّ التكرار في موضعه ، أبلغ من الإيجاز في موقعه ، وكثيرًا ما

1 الكافرون : 1 .

2 ابن قتيبة الدينوري ، تأويل مشكل القرآن ، ج 1 ، ص 149 .

3 ابن الأثير ، المثل السائر ، باب في التكرير ، ج 2 ، ص 151 .

يكرر مثل هذه العبارة : "وهذا من التكرار الذي هو أبلغ من الإيجاز ، وأشدّ وقعًا من الاختصار" .

كما أنّ مسألة التكرار في القصص القرآني ، تعدّ من القضايا التي شغلت الدراسات القرآنية و كذا البلاغية ، فقد كان لها من الأسرار ما لا ينكشف إلاّ لمن آتاه الله من فضله ويسّر له سبل الفهم ، و قد استطاع بعض المفسرين الاهتداء إلى بعض الأسرار و الفوائد و الغايات من هذا الأسلوب الربّاني المعجز ، نود في هذا المبحث ذكر قدرٍ يسيرٍ من فوائدها و أسرارها .

و قبل الخوض فيها لا بدّ أولاً من ضبط مفهوم التكرار .

مفهوم التكرار :

لغة :

التكرار كلمة مشتقة من الفعل (كرَّ) ، فالكاف والراء أصلٌ صحيح يدلُّ على جمعٍ وترديد.[1]

وهو إعادة الشيء ، فعلاً كان أو قولاً .

اصطلاحاً :

" التكرار هو ذكر الشيء مرة بعد أخرى " [2]

1 ابن فارس، مقاييس اللغة، تحق :عبد السَّلام هَارُون، اتحاد الكتاب العرب،1423هـ ،2002م، باب (كر)،ج5، ص103.

2 الجرجاني الشريف ، التعريفات ، ص 90 ، و أيضاً ، أبو البقاء الكفوي ، الكليات ، ص 267 .

" هو أن يكرر المتكلم اللفظة الواحدة باللفظ والمعنى ، والمراد بذلك تأكيد الوصف أو المدح أو الذم أو التهويل أو الوعد أو الإنكار أو التوبيخ أو الاستبعاد ، أو أي غرض من الأغراض ، وهو من ضروبِ الإطناب ، ويأتي لنكتة بلاغية "[1].

فأما ما جاء منه للذمّ فكقول مهلهل بن ربيعة :

يا لَبكرٍ أنشِروا لي كُليباً ويا لَبكرٍ أينَ أينَ الفرارُ

وأما ما جاء منه للمدح فكقول كثير في عمر بن عبد العزيز:

فأَرْبِحْ بها من صَفْقةٍ لمبايِع وأعْظِمْ بها أَعْظِمْ بها ثم أعْظِم

و كتأكيد الإنذار في نحو قوله ﷻ :

﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (3) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (4) ﴾[2] ، وفي ﴿ثم﴾ دلالة على أن الإنذار الثاني أبلغ من الأول ، تنزيلاً لبُعد المرتبة لبعد الزمان، و استعمالا للفظ ثم في التدرج في درج الارتقاء .

أو الإرشاد إلى الطريقة المثلى[3] في نحو قول المولى ﷻ : ﴿أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (34) ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ﴾[4] .

1 بدوي طبانة ، معجم البلاغة العربية ، دار المنارة ، جدة، ط3 ،1988 ، ص573 .

2 التكاثر : 3-4 .

3 المرجع السابق ، ص 575 .

4 القيامة : 34-35 .

أو لزيادة الترغيب في العفو، نحو قوله ﷻ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[1]

أو للتنبيه ، نحو قول المولى ﷻ : ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (38) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (39) ﴾[2] .

التــكرار بين النــحو و البلاغــة :

إذا كان البلاغيون قد آثروا مصطلح التكرار ، فالنحاة كذلك لهم مصطلحهم الذي وضعوه عنوانا لنمطٍ من الأساليب يدخل في إطار التكرار ، وهو التوكيد اللفظي ، و اللغويون انتبهوا لهذه الظاهرة و تعمقوها بأكثر مما تعمقها النحاة و البلاغيون ، و وضعوا لها مصطلحاً يوائم نظرتهم لها ، و فقههم فيها ، و يكفي أن نشير هنا إلى "ابن جني" ، و مصطلحه الدقيق الذي استخدمه في " الخصائص " و هو الاحتياط .

و شأن البحث البلاغي أن يبدأ من حيث انتهى النحو ، و إنّما نقف مع "ابن جني" ، لنرى كيف كان فقهه لهذا المسلك اللغوي ، و كيف كانت فلسفته اللغوية ، و رؤيته لهذا الأسلوب ، في كتابه " الخصائص " ، كتب ابن جني باباً ترجمته : " باب في الاحتياط " .

و قد استهلّه هكذا : " اعلم أن العرب إذا أرادت المعنى مكّنته ، و احتاطت له "[3] ، هو الآن يصف مزاج أمةٍ مزاجها العقلي و اللغوي على السواء تمكين المعنى ، و الاحتياط له ، عادة عقلية و لغوية عند العرب غاص عليها ابن جني ، و استخرجها بالطبع من تأمل نتاجهم الأدبي ، و فقه لسانهم العربي .

---

1 التغابن : 14 .

2 غافر : 38-39 .

3 ابن جني ، أبو الفتح عثمان ، الخصائص ، باب في الاحتياط ، ج3 ، ص 101 .

أما وسائل العرب لتحقيق هذه الغاية – تمكين المعنى و الاحتياط له – فيبينها ابن جني ، فيقول : " فمن ذلك التوكيد ، و هو على ضربين : أحدهما تكرير الأول بلفظه ، و هو نحو قولك : قام زيد قام زيد ، و ضربت زيداً ضربت ، و قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة ، و الله أكبر الله أكبر ، و يسوقون حشداً من باب الشواهد الشعرية ، تدخل كلها في نطاق التوكيد اللفظي بمعناه عند النحويين ، و يخلص هو إلى القول : " و هذا الباب – باب التوكيد اللفظي – كثيرٌ جدّاً ، و هو في الجمل و الآحاد جميعاً "[1] .

و أما صاحب : " الإتقان في علوم القرآن " – رحمه الله تعالى – و تحت عنوان : النوع السادس و الخمسون في الإيجاز و الإطناب ، فقد عقد فصلين أحدهما للإيجاز و الآخر للإطناب ، و قسّم كلاً إلى قسمين ، و يعنينا هنا باب الإطناب ، فهو مظنّة التداخل مع التكرار ، و قد قسم السيوطي[2] الإطناب إلى إطنابٍ بالبسط ، و إطنابٍ بالزيادة ، فالأول تكثير الجمل ، كقوله ﷻ : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾[3] ، الآية الكريمة ، قد أطنب فيها أبلغ الإطناب ، لكون الخطاب مع الثقلين ، و في كل عصر و حين ، للعالم منهم و الجاهل ، و الموافق منهم و المنافق .

و الثاني يكون بأنواع : منها النوع الثالث : التأكيد الصناعي ، و ذكر تحته أربعة أقسام .

ثانيها : التأكيد اللفظي ، و هو تكرار اللّفظ الأول ، إما بإفراده نحو : ﴿ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾[4] ، ﴿ وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾[5] ، و جعل منه بعضهم : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ ﴾ [6] ،

1 المصدر السابق ، ص 101 .
2 السيوطي ، الإتقان ، ج 2 ، ص 173 .
3 آل عمران : 190 .
4 الأنعام : 125 .
5 فاطر : 27 .
6 الأحقاف : 26 .

على القول بأن كليهما للنّفي ، و إما بلفظه ، و يكون في الاسم و الفعل و الحرف ، فالاسم نحو : ﴿ دَكّاً دَكّاً ﴾[1] ، و الفعل نحو : ﴿ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴾[2] ، و اسم الفعل نحو : ﴿ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴾[3] ، والحرف نحو : ﴿ فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾[4] ، و الجملة نحو : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (5) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (6) ﴾[5] .

و من هذا النّوع ، تأكيد الضمير المتّصل بالمنفصل نحو :﴿ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾[6] ، و من تأكيد المنفصل بمثله : ﴿ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴾[7] .

ثالثها : تأكيد الفعل بمصدره ، و هو عوض عن تكرار الفعل مرتين ، و فائدته : رفع توهُّم المجاز في الفعل بخلاف التوكيد السابق ، فإنه لرفع توهم المجاز في المسند إليه ، و من أمثلة الأخير : ﴿ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [8] .

رابعها : الحال المؤكِدة نحو : ﴿ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾[9] ، و ظاهر أنّ هذا مما استوفاه النحو ، و لم يبقَ للبلاغة فيه مقال ، إلاّ ما يتصل بالدواعي و المقامات و الأحوال التي تتطلّب التأكيد ، أو الإطناب بالتأكيد حسب كلام السيوطي كتابه : (الإتقان) .

---

1 الفجر : 21 .
2 الطارق : 17 .
3 المؤمنون : 36 .
4 هود : 108 .
5 الشرح : 5-6 .
6 الأعراف : 19 .
7 الأعراف : 45 .
8 الأحزاب : 56 .
9 مريم : 33 .

ما يعنينا هنا في التنبيه عليه ، أن هذا مما يدخل في نطاق ما ذكره ابن جنّي ، من مبدأ الاحتياط ، و تمكين المعنى الذي استنبطه من تحليل كلام العرب ، و فقه لسانهم ، و سننهم فيه .

ثم يذكر " السيوطي " النوع الرّابع من أنواع الإطناب بالزيادة ، و هو التكرير فيقول : " و هو – أي : التكرير – أبلغ من التأكيد ، و هو من محاسن الفصاحة خلافًا لمن غلط ، و هو استهلال طيب يدل على رؤية صحيحة لهذا السَّنن "[1] .

و حين يستقرّ الفرق بين التكرار الذي حددناه ، و بين ما يختلط به من إعادة للقصة في سياقات مختلفة ، مع اختلافاتٍ و فروقٍ في المضامين و العبارات ، و المفردات ، يسمى ما يجيء من القصص القرآني على هذا الوجه : تصريفاً ، و هو ما أشار إليه الرمّاني ، يقول في رسالته : " النكت في إعجاز القرآن " : " باب التصريف ، و التصريف : تصريف المعنى في المعاني المختلفة ، كتصريفه في الدلالات المختلفة ، و هو عقدها به على جهة التعاقب ، فتصريف المعنى في المعاني كتصريف الأصل في الاشتقاق ، أي : المصدر في المعاني المختلفة ، و هو عقدها بها على جهة المعاقبة ، كتصريف الملك في معاني الصفات ، فصُرف في معنى : مالك ، و ملك ، و ذي الملكوت ، و المليك ، وفي معنى : التمليك ، و التمالك ، و الإملاك ، و التملّك ، و المملوك ، و هذا ضربٌ من التصريف فيه بيانٌ عجيبٌ ، يظهر فيه المعنى التي تظهره و تدل عليه " [2] .

---

1 السيوطي ، الإتقان ، ج 2 ، ص 174.

2 الرماني ، النكت في إعجاز القرآن ،ثلاث رسائل في اعجاز القرآن، تح محمد خلف الله أحمد، دار المعارف ، ط3 ط3 ، ص 101 .

أما تصريف المعنى في الدلالات المختلفة ، – يقصد التصريف – فقد جاء في القرآن في غير قصة منها : قصة موسى عليه السلام ذُكرت في سورة الأعراف ، طه ، و الشعراء و غيرها.

و هكذا نرى أهل التحقيق ، و منهم "الرماني" ، و من المعاصرين الدكتور "إبراهيم الخولي" ، في كتابه : " التكرار بلاغة " ، يرون أن التكرار ما أعيد بلفظه و معناه ، و التصريف ما أُعيد بدلالات مختلفة و عبارات مختلفة ، و لكلٍ مقامه ، و لكلٍ ما يقتضيه ، و لكلٍ غرضه الذي يستدعيه ، و غايته التي تُراد منه [1].

أسرار التكـــرار في القصص القرآني :

إن تكرار بعض القصص في مواطن مختلفة من سور القرآن الكريم و عرض الشخصية في معارض كثيرة ليحمل في طيّاته أسراراً جليلة ، فقد نجد في القرآن الكريم عدّة شخصيات تأخذ المواقف المختلفة التي هي الأصل في أخذ العبرة ، و قد نجد تلك الشخصيات في مواضع مختلفة متفرقة من القرآن الكريم ، فالشخصيات ليست مقصودة لذاتها بل الأحداث هي الشاهد من القصة حتى يحصل الاعتبار ، و لهذا لم نجد مثلاً قصة موسى أو إبراهيم أو نوح في سورة واحدة ، بل في مواضع متفرقة حسب الاقتضاء .

حيث نجد أن الشخصية في القصص القرآني تقوم بغرضها الموكل إليها كالتبيلغ و النصح و الإرشاد من خلال تفاعلها مع الأحداث ، و لا يُعتبر ذكر القصة القرآنية أو الشخصية في أكثر من مناسبة تكراراً باعتبار أن هناك اختلافات ملموسة في الأحداث و مجرياتها و طريقة التركيز على جزئية معينة دون الأخرى التي لاقت التركيز و الاهتمام في موضع

1 جامعة المدينة العالمية دراسات بلاغية ، مجلة دراسية سنوية ، مطبعة المدينة العالمية 2010 ، ص 249 .

آخر لنفس القصة و هذا حسب الاقتضاء ، يقول "عبدالكريم الخطيب" : " ... التكرار في قصص القرآن ليس تكراراً للحدث وحده ، و لا إعادةٌ للواقعة بصورتها التي عُرضت بها أولاً ، بل إن أكثر القصص القرآني تتكرر فيه الشخصية ولا تتكرر فيه الحادثة "[1]

و زعْمُ القائلين بالتكرار يستند على ظهور الشخصية في مواقف متعددة فوقع لأصحاب هذه النظرة المجرّدة من التعمق و التبصر أنّ ذلك من التكرار الذي لا يدعو إليه حال أو مقام ، و هذا – طبعاً – من المزاعم الباطلة ، فالشخصية ليست مقصودة لذاتها و لو كانت كذلك لجاءت كل قصة نبي على شكل سورة أو بعض منها ، بل إنّ الحادثة هي السبب من وراء الرجوع كرّة بعد كرّة إلى ذكر الشخصية ، و المقام و اقتضاء الحال من تذكير أو وعيد أو غيره وراء إيراد تلك الحادثة ، كما أنّ في هذا تثبيتا للإعجاز و تنبيها للعرب على قصور العرب في الإتيان به مبتدءاً به و مكرّراً ، يقول "أبو الحسن أحمد ابن فارس" صاحب "الصاحبي في فقه اللغة" : " كانت ظاهرة التكرار لها دواعيها الرئيسية التي لفتت أنظار العلماء إليها و حركت أقلامهم و ألسنتهم لها ، فنرى أن إعادة القصة الواحدة بألفاظٍ مختلفة تؤدي معنى واحداً من الأمر الصعب الذي تظهر فيه الفصاحة و تُبين فيه البلاغة و أُعيد كثير من القصص في مواضعَ مختلفة على ترتيباتٍ متفاوتة إثباتاً للإعجاز القرآني و تنبيهاً للعرب عن قصورهم في الإتيان بمثله مبتدءًا به و مكرراً "[2]

كما أنّ صاحب البرهان ذكر أسراراً أخرى للتكرار فلخّصها في بضع أمور :

" إحداها : أنّه إذا كرّر القصة زاد فيها شيئاً ، و مثال ذلك أنه ذكر الحية في عصا موسى عليه السلام ، و ذكرها في موضع آخر ثعباناً .

1 عبد الكريم الخطيب : القصص القرآني في منطوقه ومفهومه ، ط، دار الفكر العربي ، ص 42 .

2 ابن فارس أبو الحسن أحمد ، الصاحبي في فقه اللغة و سنن العرب في كلامها ، ص 209 .

الثانية : أن الرجل – و ذلك في صدر الإسلام وقبل أن يكمل القرآن – كان يسمع القصة من القرآن ثم يعود إلى أهله ، ثم يهاجر بعده آخرون يحكون عنه – أي عن القرآن– ما نزل بعد صدور الأولين ، و كان أكثر من آمن به أي بالقرآن مهاجريا ، فلولا تكرار القصة لوقعت قصة موسى عليه السلام إلى قوم ، وقصة عيسى عليه السلام إلى آخرين و كذلك سائر القصص فأراد الله سبحانه و تعالى اشتراك الجميع فيها ، فيكون فيه إفادة لقوم ، و زيادة تأكيدٍ و تبصرةٍ لآخرين .

الثالثة : أنّ الله عز وجل أنزل هذا القرآن و عجز القوم عن الإتيان بمثل آيةٍ منه لصحة نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ثم بين و أوضح الأمر في عجزهم بأن كرّر ذكر القصة في موضع ، إعلاماً بأنهم عاجزون عن الإتيان بمثله بأي نظمٍ جاءوا وبأي عبارةٍ عبّروا .

الرّابعة : أنه عز وجل لمّا تحداهم قال : ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ﴾[1] ، فلو ذكرت القصة في موضع واحد و اكتفى بها لقال العربي : إئتونا أنتم بسورة من مثله ، فأنزلها الله سبحانه و تعالى في تعداد السور فعالجتهم من كل وجه "[2]

لم يكن أبداً ذكر القصة الواحدة بأساليب مختلفة تتراوح بين الإيجاز و الإطناب ، و الإشارة و التفصيل ، و التقديم و التأخير حسب الاقتضاء ، ممّا يمكن للعرب أن يعيبوا عليه ، بل هو سرٌ و وجهٌ من وجوه الإعجاز يقوم منه شاهدٌ بأنه كلامٌ منزّل من عند الله تقصر عن التلق بقصصه أيدي أصحاب البيان و تتقطع دونه أنفاس البلغاء .

1 البقــرة : 23 .

2 الزركشي بدرالدين ، البرهان في علوم القرآن ، ص27 .

حكمة التكرار و مقاصده في قصّة موسى عليه السلام :

قصة موسى عليه السلام مع فرعون من أكثر القصص وروداً في القرآن الكريم ، و قد امتازت بوجود اختلافات في ألفاظها من زيادة و نقصان و تقديم وتأخير تضفي على معانيها جملةً من الأسرار ، " و تلك حال المعاني الواقعة بحسب تلك الألفاظ ، فإنّ كلَّ واحدة لا بُدَّ و أن تخالف نظيرتها من نوع معنى زائدٍ فيه ، لا يوقَفُ عليه إلاّ منها دون غيرها ، فكأنّ الله تعالى فرّق ذِكرَ ما دار بينها و جعله أجزاء ، ثم قسم تلك الأجزاء على تارات التكرار لتوجَد متفرقةً فيها ، و لو جمعت تلك القصص في موضعٍ واحد لأشبهت ما وُجِدَ عليه الأمر من الكتب المتقدمة ، من انفراد كل قصّةٍ منها بموضع ، كما في القرآن بالنسبة ليوسف خاصة " .[1]

و نجد أن " السيوطي" في كتابه "الإتقان في علوم القرآن" يقرر بأنه قد اجتمعت في هذه الخاصية من نظم القرآن – أي التكرار– عدّة معانٍ عجيبة من إخراج المعنى الواحد في صور متباينةٍ في النظمِ ، وجذب النفوس إلى سماع تلك القصص لما جبلت عليه – أي النفوس– من حب التنقل في الأشياء المتجدّدة و استلذاذها بها ، وإظهار لخاصية القرآن حيث لم يحصل مع تكرير ذلك هجنةٌ في اللفظ ولا مللٌ عند سماعه ، فباين ذلك كلام المخلوقين ، كما أن المعاني التي اشتملت عليها القصة الواحدة منها صارت متفرقة في تارات التكرير[2] .

و المتتبع لقصة موسى عليه السلام في الكتاب العزيز ، يجد أنها تسير في عدة مراحل ، قد تظهر في ثوب التكرار ، لكنها تحمل في طياتها لطائف اختلافات ، و بدائع سياقات قد علمت كل عبارة مكررة سرّ إثباتها و إقرارها في ذلك المقام ، والحكمة من إيرادها .

1 محمود السيد حسن ، الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية ، ص 126 .

2 السيوطي : الإتقان في علوم القرآن ،ج2،ص69 .

فمن خلال تتبّع قصة موسى عليه السلام و بني اسرائيل يتبين لنا أنّها من أكثر القَصص تكراراً في القرآن الكريم و معظمها – مواضع التكرار – إشارات توجيهية إلى القصة ، يقتضيها السياق ، أما الأحداث الأساسية فلم تتكرر تقريباً و هذا ما أردنا الوقوف عليه هنا ، كما أنّ الحلقة التي تتكرر يكون معها شيءٌ جديدٌ جديرٌ بالذكرِ ، يتحتّم وجوده و يتفق مع مجرى الأحداث ، و قصة موسى تعتبر نمطاً لغيرها من قصص القرآن ، وعلى هذا فليس في تلك القصص من تكرارٍ مطلقٍ أو إعاداتٍ اعتباطية خارج المقام ، بل إنّ هناك حكمةً من تصريف تلك القصص نودّ أن نبينها كما أوردها القفال[1] في تفسيره الجامع ، حيث تتجلى حكمة التكرار أو التصريف في وجوهٍ من المقاصد من أهمها :

- الدّلالة على صحة نبوّة محمد ﷺ ، لأنّه أخبر عنها من غير تعلّم ، و ذلك لا يمكن إلا من خلال الوحي .
- تعديد النعم على بني اسرائيل ، و ما منّ الله على أسلافهم من الكرامة و الفضل ، كالنجاة من آل فرعون و بطشهم ، و فَرْقِ البحرِ لهم ، و ما أُنزل عليهم في التّيه من المنِّ و السلوى ، و تفجّر الحجر و تظليل الغمام و غيرها من النعم التي خصّهم الله سبحانه و تعالى بها .
- إخبار الله نبيه تقديم كفرهم و خلافهم وشقاوتهم وتعنتهم على الأنبياء ، فكأنه جل جلاله يقول : إذا كانت هذه معاملتهم مع نبيهم الذي أعزّهم الله به ، و أنقذهم من العذاب بسببه فلا عجب فيما يعامل به أخلافهم محمداً ﷺ .
- تحذير أهل الكتاب الموجودين في زمن النبي ﷺ من نزول العذاب بهم كما نزل بأسلافهم[2] .

1 القفال ، قال عنه ابن خلكان : هو محمد بن أحمد بن الحسين الشاشي القفال ، رئيس الشافعية ، توفي سنة 507هـ.
2 ابن خلكان: وفيات الأعيان ، مصر1275 هـ ، ص464 .